الأثر التكويني للدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، ويَسِّرْ لِي أَمْرِي، واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي[1].

تصدير:

يعيش العالم هذه الأيام محنة الوباء المعروف بكورونا، وقد أرانا الله به عجائب صنعه وعظيم قدرته، حيث قلب كيان الناس فيروس لا يُرى بالعين المجردة، فَعَطَّلَ الأعمال والأسواق والمصالح والمدارس وما سواها، وأبقى الناس في بيوتها خشية الإصابة بهذا المرض الفتاك، حيث لم يسلم منه الكثيرون من فاقد أو مفقود أو مصاب طريح الفراش، ناهيك عن الكآبة التي خيمت على النفوس وأذهبت البسمة من الشفاه، فصار الناس يتطلَّعُون إلى اليوم الذي يُرفع فيه هذا البلاء عن رؤوس العباد.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عبادَه بالدعاء والتضرع والفزع إليه وضمن لهم الإجابة، فقال تقدست أسماؤه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[2] وقال (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)[3] وقال (وَقَالَ رَبُّكُمُ

---

١ طه: ٢٥ -٢٨.

٢ البقرة: ١٨٦.

٣ النمل: ٦٢.

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[1] إلى غيرها من الآيات مضافًا إلى الروايات الداعية إلى التوجه إلى الله بالدعاء والمناجاة.

شروط قبول الدعاء:

ومع ذلك فقد لا يستجاب الدعاء ولا يرى الأثر المرجو منه. وليس ذلك إلا لفقد بعض شروطه أو لوجود المانع، وقد ذكر العلماء جملة من الشروط والمقتضيات والآداب المستفادة من هَدْيِّ المعصومين عليهم السلام التي من شأنها تعجيل استجابة الدعاء والتأثير في قبوله كمثل التوسل بالمعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، واختيار الأيام والأماكن المقدسة، وتقديم الصلاة والصوم، والصدقة، والتوبة وغيرها.

روى يونس بن عمار قال: (شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام رجلًا كان يؤذيني، فقال: أدع عليه، فقلت: قد دعوت عليه، فقال: ليس هكذا، ولكن اقلِعْ عن الذنوب وصُمْ وصَلِّ وتَصَدَّق، فإذا كان آخر الليل فأسبغ الوضوء ثم قُمْ فَصَلِّ ركعتين ثم قل وأنت ساجد ..)[2] إلى آخر الخبر.

فمتى ما تحققت الشروط والمقتضيات، وارتفعت الموانع والعقبات تحققت النتيجة؛ لعدم انفكاك الأثر عن المؤثر. نعم قد يظهر للدَّاعي أنه أتم جميع المقدمات ورفع جميع الموانع، إلا إنه تبقى هناك مساحة مجهولة لديه لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل الذي هو أعلم بالمصالح والمفاسد، ولذلك فقد يُؤَجِّل الاستجابة له إلى حين تحقق المصلحة أو رفع المفسدة، وقد لا يُستَجَابُ له أصلًا؛ لأن في ذلك صلاحه وخيره، ونحن في هذه الأسطر نحاول

---

١ غافر: ٦٠.

٢ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج١، ص ٥٥٩.

تسليط الضوء بشكل مختصر على أحد الأمور المؤثرة في استجابة الدعاء، وهو الالتزام بصيغة الدعاء كما ورد.

جواز الدعاء بما جاء على اللسان:

مما لا شك فيه أن الدعاء بأي شكل كان ولو كان مخترعًا ومما جرى به اللسان جائز في نفسه؛ للأصل وللعمومات الحاثة على الدعاء، بل لصريح جملة من النصوص، فعن إسماعيل بن الفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القنوت وما يقال فيه، فقال: (ما قضى الله على لسانك ولا أعلم له شيئا موقتا)[1].

وعنه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عَمَّا أقول في وتري فقال: (ما قضى الله على لسانك وقدّره)[2].

وعن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عَلِّمْنِي دُعاء، فقال: (إن أفضل الدعاء ما جرى على لسانك)[3].

فهذه النصوص واضحة الدلالة في جواز الدعاء بما يجول في خاطر الدَّاعي، وبأي أسلوب كان، إلا أن الأمر لا يسلم دائمًا من الشائبة، فقد يقع الدَّاعي من حيث لا يشعر في أخطاء ناتجة عن قُصُورِهِ المَعرفي بالمُخاطَب،

---

١ الكافيّ، الكلينيّ، ج ٣ ص ٣٤٠.
٢ تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسيّ، ج ٢، ص ١٣٠.
٣ وسائل الشيعة، الحر العامليّ، ج ٧، ص ١٣٩.

أو قِصَرِ بَاعِه في اللُّغة وأدبِ الخطاب، ومن هنا يُفهَمُ النَّهي عن الاستعاضة بالدُّعاء المخترع عن التمسك بما ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

فعن عبد الرحيم القصير قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك إني اخترعت دعاء قال: (دعني من اختراعك إذا نزل بك أمر فافزع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وَصَلِّ ركعتين تهديهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، قلت: كيف أصنع؟ قال: تغتسل وتصلي ركعتين تستفتح بهما افتتاح الفريضة وتشهد تشهد الفريضة، فإذا فرغت من التشهد وسلّمت قلت: اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك..)[1] إلى آخر الخبر. ولا شَكَّ أن هذا النهي ليس إلزامياً؛ لصراحة الأدلة المجوزة، بل إرشاديًا لما هو الأولى والأفضل.

وقوع أخطاء في الدعاء المخترع:

من الطبيعي بمقتضى عدم عصمة الإنسان عروض الأخطاء الفعلية والقولية عليه، بل إن أحد دواعي الدعاء هو طلب الصفح والمغفرة من الله عز وجل اتجاه ما يعتري الإنسان من تقصيرٍ في حق الله أو حق الناس أو حق نفس الداعي، ولذا كان من المُعيبِ والمُستهجَنِ أَنْ يُطلبَ غفران التقصير بخطابٍ يشوبه التقصير في الجنبة المعرفية أو اللغوية. وهذا ما يمكن أن يحصل كثيرا في الأدعية المخترعة.

فعن أبي علي القصاب قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقلت: (الحمد لله منتهى علمه) فقال: (لا تقل ذلك فإنه ليس لعلمه منتهى)[2].

---

١ الكافيّ، الكلينيّ، ج ٣ ص ٤٧٦.

٢ وسائل الشيعة، الحر العامليّ، ج ٤، ص ١١٦٩.

وعن صفوان عن الكاهلي قال: كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام في دعاء (الحمد لله منتهى علمه)، فكتب إلي: (لا تقولن منتهى علمه فليس لعلمه منتهى، ولكن قل منتهى رضاه)[1].

وعن بكر الأرقط، أو عن شعيب، عن أبي عبد الله عليه السلام -في حديث- أنه قال له: ادع الله أن يغنيني عن خلقه، قال: (إن الله قسّم رزق من شاء على من يشاء، ولكن سل الله أن يغنيك عن الحاجة التي تضطرك إلى لئام خلقه)[2].

وسَمَعَ أمير المؤمنين عليه السلام رجلًا يقول: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الفتنة، قال: (أراك تتعوذ من مالك وولدك، يقول الله تعالى: (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)[3]، ولكن قل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن)[4].

وَوَرَدَ في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فان الله يقول: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)[5])[6].

فهذه الروايات وأمثالها أمثلةٌ على وقوع الأخطاء في الخطاب الناتجة عن القصور المعرفي من المخاطِب -بالكسر- نحو المخاطَب -بالفتح-، وهي نتائج طبيعية بعد أن كانت معرفة الذات المُقَدَّسة من الأمور المستعصية

---

١ الكافي، الكليني، ج ١، ص ١٠٧.
٢ وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ٧، ص ١٣٨.
٣ الأنفال: ٢٨.
٤ الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٥٨٠.
٥ الأنفال: ٢٨.
٦ وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ٧، ص ١٣٧.

على الأذهان، وكان الدعاء مرتكزًا على التزلف إلى الله عز وجل بذكر صفاته وعظيم آلائه وتنزيهه عما لا يليق بقدسه، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[1]، ولذلك ورد النهي عن التفكر في ذات الله عزَّ وجل؛ لأنه بحر عميق يغرق فيه من يلجه.

فعن أبي جعفر عليه السلام قال: (تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيرا)[2]، وفي رواية أخرى عن حريز قال: (تكلموا في كل شيء ولا تتكلموا في ذات الله)[3]، وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه)[4].

هذا إضافة إلى ما يعتري الدعاء المخترع من أخطاءٍ لغوية وإنشائية في كثير من الأحيان، ومن الواضح أن الذهن العرفي يدرك أن الخطاب من الداني إلى العالي يجب أن يكون في أبهى صورة وأجمل حلة، خاليًا من جميع الثغرات التي يمكن أَنْ تُؤْخَذَ عليه، فالنَّاسُ في خطاباتهم الرسمية إلى الدوائر والمؤسسات -مثلًا- يسعون جاهدين أن يكونَ خطابهم وفق البروتوكولات المعروفة ويراجعون في ذلك أهل الاختصاص من الكُتّابِ والمحاميين ليكون خطابهم خطابًا رسميًا بعيدًا عن اللغو والحشو، مستخدمين في ذلك العبارات المعهودة والمعروفة لدى الجهة التي يُرفَعُ لها الخطاب.

---

١ الزمر: ٦٧.
٢ الكافي، الكليني، ج ١، ص ٩٢.
٣ المصدر نفسه.
٤ المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٣.

ولذلك ورد الحَثُّ على تَعَلُّم اللُّغة العربية التي هي لغة الخطاب مع الله عزَّ وجل، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: (تعلموا القرآن بعربيته)[1]. وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (تعلموا العربية، فإنها كلام الله الذي يكلم به خلقه)[2].

بل ورد أن الدُّعاء الملحون -أي الذي يحوي أخطاءً لغوية- لا يصعد إلى السماء، فعن أبي جعفر الجواد عليه السلام قال: (ما استوى رجلان في حسب ودين قط إلا كان أفضلهما عند الله عزَّ وجل آدَبهُما، قال الراوي: قلت: قد علمت فضله عند الناس في النادي والمجلس، فما فضله عند الله؟ قال: بقراءة القرآن كما أُنزل ودعائه من حيث لا يلحن وذلك الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله)[3].

وعدم صعود الدُّعاء ليس بمعنى عدم قبوله، فإن الله تبارك وتعالى أَجَلُّ وأَرحَمُ من أنْ يَرُدَّ دعوة عبده لأجل ذلك، وخصوصًا إنْ كان اللَّحن ناتجًا عن القصور لا التقصير، بل المعنى أنه لا يصعد بصورته الملحونة ويتم رفعه بصورته الصحيحة، ويشهد لذلك ما ورد عن النبي ﷺ: (إن الرجل الأعجميّ من أمتي ليقرأ القرآن بعجمية فترفعه الملائكة على عربيته)[4].

لكن مع ذلك يفهم من هذه الروايات وأضرابها أن تعلم اللغة العربية مطلوب في الجملة؛ ليتأدى بها الخطاب الصحيح مع الله عزَّ وجل، نعم ليس المقصود بذلك هو الاستغراق في اللغة بحيث يطغى على الجانب الروحي والتوجه القلبي كما أبتُلي مجتمعنا ببعض المتشدقين بها بحيث

---

١ الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٣٤٤.
٢ بحار الانوار، العلامة المجلسيّ، ج ١، ص ٢١٢.
٣ وسائل الشيعة، الحر العامليّ، ج ٦، ص ٢٢٠.
٤ المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢١.

يظنون أن كل من لا ينطق بالحروف بالصورة التي ينطقون عمله فاسد غير مجزٍ ولا مبرئ للذِّمة، فعن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من انهمك في طلب النحو سُلِب الخشوع)[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (تجد الرجل لا يخطئ بلام ولا واو خطيبا مصقعا، ولَقلبه أشد ظلمة من الليل المظلم، وتجد الرجل لا يستطيع يعبر عمّا في قلبه بلسانه وقلبه يزهر كما يزهر المصباح)[2].

الدعاء في مدرسة أهل البيت عليهم السلام :

إن الناظر في تراث أهل البيت عليهم السلام يجده مشحونًا بالأدعية والمناجاة والأوراد والأحراز وما إلى ذلك في أبهى صورة وأجمل تعبير، فهم أهل البلاغة واللغة، وكلامهم كما يشهد بذلك كل من جال فيه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، فدونكم نهجُ بلاغةِ سيد البلغاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو تالي القرآن في العظمة وسحر البيان، وهاكم صحيفة سيد الساجدين وزين العابدين عليه السلام زبور آل محمد وإنجيلهم، فكلماتهم وأدعيتهم تطفح بالبلاغة والبيان والبديع حتى صار العلماء يميزون بين أدعيتهم وأدعية من سواهم بسبك العبارات وقوة التعبير وجزالة الألفاظ وتوافقها مع الأصول والأسس الدينية، وليس ذلك إلا لأنهم زُقّوا العلم زقًّا، معصومون مطهرون ومنزهون عن العيب والخطأ والشائبة، مضافًا إلى أنهم أعلم بلغة الخطاب مع الله عز وجل عمن سواهم، ففعلهم معصوم وقولهم معصوم ودعاؤهم معصوم، يقرؤه الدَّاعي متلذذًا بمضامينه، مترقيًا بمراقيه، متعلمًا من

---

١ وسائل الشيعة، الحر العامليّ، ج ١٧، ص ٣٢٩.
٢ الكافيّ، الكلينيّ، ج ٢، ص ٤٢٢.

مفاهيمه، فهو ليس كأي دعاء يخطر على ذهن الداعي، بل يمكن أن يقال أن أدعيتهم عليهم السلام مدرسة متكاملة الفصول، متنوعة الدروس، يَرِدُ زلالها الظمآن فيرجع رَوِيًّا من معارفها العذبة، وعلومها العالية، ومفاهيمها الراقية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ألا إن اللسان بضعة من الإنسان، فلا يسعده القول إذا امتنع، ولا يمهله النطق إذا اتسع، وإنَّا لأمراء الكلام، وفينا تنشبت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه، واعلموا رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللِّسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل)[1].

الالتزام بالدعاء المأثور:

ومن الأمور التي تُلاحَظُ في كلماتهم عليهم السلام حرصهم على الالتزام بصيغ الدعاء كما ورد عنهم عليهم السلام بلا زيادة ولا نقيصة ولا تبديل، وهذا ما نرمي الإشارة إليه في هذه المقالة.

لا شَكَّ أن الزيادة والنقيصة والتبديل في عبارات الدُّعاء ليس بحرام ما لم يُنسب ذلك إليهم عليهم السلام، فَيَحْرُمُ مِنْ باب الكذب عليهم، ومع ذلك فقد وَرَدَ في جملةٍ من النصوص النهي عن الزيادة والنقيصة وتبديل فقرات الدعاء مع أنه لا يظهر منها إرادة نسبة هذا التغيير إليهم عليهم السلام، فما هو السبب في ذلك؟

لنَستَعرِض بعض هذه النصوص ثُمَّ نرجع للإجابة على السؤال المطروح.

---

١ بحار الانوار، العلامة المجلسيّ، ج ٦٨، ص ٢٩٢.

عن إسماعيل بن الفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجل: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)[1] فقال: (فريضة على كل مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس عشر مرات وقبل غروبها عشر مرات "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير"، قال: فقلت: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، ويميت ويُحيي" فقال: يا هذا؛ لا شك في أنّ الله يُحيي ويميت، ويميت ويُحيي، ولكن قل كما أقول)[2].

وعن العلاء بن كامل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول عند المساء لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، ويميت ويحيي وهو كل شيء قدير). قال: قلت: بيده الخير، قال: (إن بيده الخير، ولكن قل كما أقول لك عشر مرات، وأعوذ بالله السميع العليم حين تطلع الشمس وحين تغرب عشر مرات)[3].

وعن عبد الله ابن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (ستصيبكم شُبهة فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق، قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك، فقلت: يا مقلب القلوب والابصار ثَبِّت قلبي

---

١ طه: ١٣٠.
٢ الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٤٥٢.
٣ الكافيّ، الكلينيّ، ج ٢، ص ٥٢٧.

على دينك، فقال: إن الله عزَّ وجل مقلب القلوب والأبصار، ولكن قل كما أقول: يا مقلب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك)[1].

فما هو سر اهتمامهم عليهم السلام بالحفاظ على صيغة الدُّعاء كما هو بلا أي تبديلٍ حتى على مستوى الكلمة الواحدة؟

قد يقال إن السَّبَبَ هو إرادةُ عدمِ وقوع التحريف في كلامهم عليهم السلام ، فإذا سمح المعصوم بتبديل كلمة في الدُّعاء إلى مرادفها أو ما في معناها فإنه لا يُؤْمَن من تغير تركيب الدعاء ككل على مرور الأزمنة المتطاولة.

فَتَشَدُّدُهم في حفظ الدُّعاء كما ورد عنهم عليهم السلام غَرَضُهُ حِفظ الدُّعاء من التغير والتبدل، لكن يبقى السؤال عن عِلَّة هذا الغرض، فما هو الضير في نقل الدعاء بالمعنى كما سمحوا بذلك في رواياتهم الأخرى؟

جواز نقل الروايات بالمعنى:

فعن ابن المختار أو غيره رفعه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك، فَلَعَلِّي لا أرويه كما سمعته فقال: (إذا أصبت الصلب منه فلا بأس، إنما هو بمنزلة تعال، وهلمّ، واقعد، واجلس)[2].

وعن عبد الله السياري عن بعض أصحابنا يرفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: (إذا أصبت معنى حديثنا فأعرب عنه بما شئت)[3].

---

١ بحار الانوار، العلامة المجلسيّ، ج ٥٢، ص ١٤٨.
٢ وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ٢٧، ص ١٠٥.
٣ المصدر نفسه.

وعن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص؟ قال: (إن كنت تريد معانيه فلا بأس)[1].

وعن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني أسمع الكلام منك فأريد أن أرويه كما سمعته منك فلا يجيئ، قال: (فتعمد ذلك؟ قلت: لا، فقال: تريد المعاني؟ قلت: نعم، قال: فلا بأس)[2].

سر الالتزام بنص الدعاء:

يمكن أن يقال إن السرَّ في ذلك هو أن الدُّعاء الوارد عنهم عليهم السلام أشبه بالوصفة الطبية أو الخطة العلاجية التي متى ما تغير فيها شيء تغيرت النتيجة المرجوة. فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (إن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراما)[3]. وعنه عليه السلام أنه قال: (الدعاء يرد القضاء بعد ما أُبرم إبراما، فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله عز وجل إلا بالدعاء)[4].

فالدُّعاء القادر على رَدِّ القَضاءِ وقد أُبرِمَ إبرامًا، والذي تُنال به كل حاجة، لا شَكَّ في أنّ له نحو تأثير تكويني في الأمور بعد أن تَتَحَقَّقَ شرائطُه وترتَفِع موانعُه كما مر. وبملاحظة أنهم عليهم السلام مستودع الأسرار الإلهية ومجمع الفضائل الربانية، قد أَطْلَعَهم الله عزَّ وجل على ما لم يُطْلِعْ عليه أحدًا سواهم، وأنّ من أحد هذه المعارف والعلوم التي بين يديهم علم الحروف

---

١ الكافيّ، الكلينيّ، ج ١، ص ٥١.
٢ المصدر نفسه.
٣ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦٩.
٤ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧٠.

والتراكيب اللغوية التي يمكن من خلالها وبصياغة خاصة أن تتحقق نتائج لا تتيسر بالطرق الاعتيادية؛ يُعلم سر إصرارهم على عدم تبديل صيغة الدعاء.

نقل القندوزي في ينابيع المودة عن الشيخ عبد الرحمن بن محمَّد بن عليّ بن أحمد البسطاميّ قوله:

(ثم إن الإمام عليًا ورث علم أسرار الحروف من سيدنا ومولانا محمّد رسول الله (ص) واليه الإشارة بقوله (ص): أنا مدينة العلم وعليّ بابها، وهو أول من وضع وفق مائة في مائة في الإسلام، ثم الإمامان الحسن والحسين ورثا علم أسرار الحروف من أبيهما، ثم ابنه الإمام زين العابدين ورث من أبيه علم أسرار الحروف، ثم ابنه الإمام محمّد الباقر، ثم ابنه الإمام جعفر الصادق، وهو الذي حل معاقد رموزه وفك طلاسم كنوزه. وقال الإمام جعفر الصادق: علمنا غابر ومزبور، وكتاب مسطور، في رق منشور، ونكت في القلوب، ومفاتيح أسرار الغيوب، ونقر في الاسماع، ولا تنفر منه الطباع، وعندنا الجفر الأبيض، والجفر الأحمر، والجفر الأكبر، والجفر الأصغر، والجامعة، والصحيفة، وكتاب عليّ عليه السلام)[1].

وفي حديث مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع عمران الصابي قال: (وكان أول إبداعه وإرادته ومشيته الحروف التي جعلها أصلا لكل شيء، ودليلًا على كل مدرك، وفاصلًا لكل مشكل، وبتلك الحروف تفريق كل شيء من اسم حق وباطل، أو فعل، أو مفعول، أو معنى، أو غير معنى، وعليها اجتمعت الأمور كلها)[2].

---

١ ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزيّ، ج ٣، ص ١٩٨.
٢ عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج ١، ص ١٥٤.

الحرص على عدم حصول الأعداء على الدعاء:

فَيُحْتَمَلُ على هذا أن يكونَ السبب هو حفظ هذه التراكيب والعبارات عن التحريف كي تتحقق النتائج المرجوة منها، وقد يَشْهَدُ لذلك ما ورد عنهم عليهم السلام من حرصهم على أن لا تقع أدعيتهم بأيدي أعدائهم فيسيئوا الاستفادة منها لما لها من أثر تكويني كما يستفاد.

فقد ورد عن متوكل بن هارون أنه لقي يحيى بن زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام وهو متوجه إلى خراسان، فدار بينهما كلام كان من ضمنه أن يحيى سأل المتوكل إن كان كتب شيئاً من العلم عن الإمام الصادق عليه السلام، فأخرج له وجوهًا من العلم كان من ضمنها نسخة من الصحيفة السجادية. فأخرج يحيى نسخة أخرى من الصحيفة من حفظ أبيه زيد عن الإمام السجاد وقال (إن أبي أوصاني بصونها، ومنعها غير أهلها) ثم دفع نسخة المتوكل إلى غلام كان معه، وقال: اكتب هذا الدعاء بخط بين حسن، وأعرضه عليّ لعلي أحفظه، (فإني كنت أطلبه من جعفر حفظه الله فيمنعنيه). ثم بعد أن علم أنه يُقتل كأبيه زيد كما أخبر به الإمام الصادق عليه السلام، قال للمتوكل: (والله يا متوكل لولا ما ذكرت من قول ابن عمي إنني أُقتَل وأصلب لما دفعتها إليك، ولكنت بها ضنينا، ولكني أعلم أن قوله حق أخذه عن آبائه، وأنه سيصح، (فخفت أن يقع مثل هذا العلم إلى بني أمية فيكتموه ويدخروه في خزائنهم لأنفسهم)، فاقبضها واكفنيها وتربص بها، فإذا قضى الله من أمري وأمر هؤلاء القوم ما هو قاض، فهي أمانة لي عندك حتى توصلها إلى ابنيّ عمي محمد وإبراهيم ابنيّ عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي عليهما السلام، فإنهما القائمان في هذا الأمر بعدي، قال المتوكل: فقبضت الصحيفة، فلما قتل يحيى بن زيد صرت إلى المدينة، فلقيت أبا عبد الله

عليه السلام فحدثته الحديث عن يحيى، فبكى واشتد وجده به، وقال: رحم الله ابن عمي وألحقه بآبائه وأجداده، (والله يا متوكل ما منعني من دفع الدعاء إليه إلا الذي خافه على صحيفة أبيه)، وأين الصحيفة؟ فقلت: ها هي. ففتحها، قال: هذا والله خط عمي زيد، ودعاء جدي علي بن الحسين عليهما السلام، ثم قال لابنه: (قم يا إسماعيل فأتني بالدعاء الذي أمرتك بحفظه وصونه). ثم وجه الإمام عليه السلام إلى محمد وإبراهيم فجاءا. فقال: هذا ميراث ابن عمكما يحيى من أبيه، قد خصكما به دون إخوته، (ونحن مشترطون عليكما فيه شرطا. فقالا: رحمك الله قل فقولك المقبول. فقال: لا تخرجا بهذه الصحيفة من المدينة. قالا: ولم ذاك؟ قال: إن ابن عمكما خاف عليها أمرا أخافه أنا عليكما). قالا: إنما خاف عليها حين علم أنه يقتل. فقال أبو عبد الله عليه السلام: وأنتما فلا تأمنا، فوالله إني لاعلم إنكما ستخرجان كما خرج، وستقتلان كما قتل[1].

ورُوِيَ عن الإمام الباقر عليه السلام في شأن دعاء السمات أنه قال: إن يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام لما حارب العماليق وكانوا في صور هائلة، ضعفت نفوس بني إسرائيل عنهم، فشكوا إلى الله عزَّ وجل، فأمر الله تعالى يوشع عليه السلام أن يأمر الخواص من بني إسرائيل أن يأخذ كل واحد منهم جرة من الخزف فارغة على كتفه الأيسر باسم عمليق، ويأخذ بيمينه قرنا مثقوبًا من قرون الغنم، ويقرأ كل واحد منهم في القرن هذا الدعاء - يعني دعاء السمات – (لئلا يسترق السمع بعض شياطين الجن والإنس فيتعلموه)[2].

---

١ راجع الصحيفة السجّادية، ص ٦١٩.

٢ بحار الأنوار، العلامة المجلسيّ، ج ١٣، ص ٣٧٢.

سبب آخر:

ولقائلٍ أن يقول أن حرصهم عليهم السلام على عدم وقوع أدعيتهم بأيدي أعدائهم ليس من أجل هذا السبب، وإنما لأن ذلك داخل في إذاعة سرهم إلى غير أهله التي قد وردت في حرمته روايات كثيرة.

فعن أبي سعيد المدائني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (اقرأ موالينا السلام، وأعلمهم أن يجعلوا حديثنا في حصون حصينة، وصدور فقيهة، وأحلام رزينة، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما الشاتم لنا عرضًا والناصب لنا حربًا أشد مؤونة من المذيع علينا حديثنا عند من لا يحتمله)[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (من أذاع علينا حديثنا هو بمنزلة من جحدنا حقنا)[2]. وقال عليه السلام: (ليس منا من أذاع حديثنا، فإنه قتلنا قتل عمد لا قتل خطأ)[3].

وباعتبار أن أدعيتهم عليهم السلام مشحونة ببيان مقام النبيِّ الأعظم وأهل بيته عليهم السلام عند الله، وما يستوجبونه من الاحترام والتقدير والانقياد والطاعة من الأمة نحوهم، إلى غير ذلك من المعارف الحقة التي يسلِّم بها كل من وصلت إلى مسامعه؛ كان إذاعة ذلك وإشاعته بين أعداءهم الحاقدين الذين يأخذونهم بالتهمة والظنة مما يجلب لهم ولشيعتهم المضرة والحرج، فحرصوا على أن لا تقع بأيدي أعداءهم وأن تتداول بين محبيهم وشيعتهم عليهم السلام.

---

١ بحار الانوار، العلامة المجلسي، ج ٢، ص ٧٩.
٢ المصدر نفسه.
٣ المصدر نفسه.

وقد نُسب للإمام زين العابدين عليه السلام قوله:

إني لأكتم من علمي جواهره * كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقد تقدم في هذا أبو حسن * إلى الحسين ووصي قبله الحسنا

ورب جوهر علم لو أبوح به * لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي * يرون أقبح ما يأتونه حسنا[1]

عودًا على الاحتمال الأول:

أقول هذا احتمال وارد وصحيح، لولا وجود بعض النصوص التي تساعد الاحتمال الأول.

فعن صفوان الجمّال قال: حملت أبا عبد الله عليه السلام الحملة الثانية إلى الكوفة وأبو جعفر المنصور بها فلما أشرف على الهاشمية مدينة أبي جعفر أخرج رجله من غرز الرجل، ثم نزل ودعى ببغلة شهباء، ولبس ثياب بيض وكمة بيضاء، فلما دخل عليه قال له أبو جعفر: لقد تشبهت بالأنبياء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: وأنى تبعدني من أبناء الأنبياء؟ فقال: لقد هممت أن أبعث إلى المدينة من يعقر نخلها ويسبي ذريتها، فقال: ولم ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: رفع إليّ أن مولاك المعلّى بن خُنيس يدعو إليك ويجمع لك الأموال، فقال: والله ما كان، فقال: لست أرضى منك إلا بالطلاق والعتاق والهدي

---

١ الوافيّ، الفيض الكاشانيّ، ج ١، ص ١١.

والمشي، فقال: أبِالأنداد من دون الله تأمرني أن أحلف؟ إنه من لم يرض بالله فليس من الله في شيء، فقال: أتتفقه علي؟ فقال: وأنّى تبعدني من الفقه وأنا ابن رسول الله ﷺ، فقال: فإني أجمع بينك وبين من سعى بك، قال: فافعل، فجاء الرجل الذي سعى به، فقال له أبو عبد الله: يا هذا، فقال: نعم والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم لقد فعلت، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: (ويلك، تمجد الله فيستحيي من تعذيبك، ولكن قل: برئت من حول الله وقوته، وألجئت إلى حولي وقوتي)، فحلَف بها الرجل، فلم يستتمها حتى وقع ميتا، فقال له أبو جعفر: لا أصدق بعدها عليك أبدًا، وأحسن جائزته ورده[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (احلِفوا الظالم إذا أردتم يمينه بأنه برئ من حول الله وقوته، فإنه إذا حلَف بها كاذبا عُوجِل، وإذا حلَف بالله الذي لا إله إلا هو لم يُعاجَل، لأنه قدْ وحّد الله سبحانه)[2].

وعن الإمام الرضا عن أبيه عليهما السلام: إنَّ رجلًا وشى إلى المنصور أن جعفر بن محمد عليه السلام يأخذ البيعة لنفسه على الناس ليخرج عليهم، فأحضره المنصور فقال الصادق عليه السلام: ما فعلت شيئا من ذلك، فقال المنصور لحاجبه: حلِّف هذا الرجل على ما حكاه عن هذا - يعني الصادق عليه السلام - فقال الحاجب: قل والله الذي لا إله إلا هو – وجعل يغلّظ عليه اليمين - فقال الصادق عليه السلام: لا تحلِّفه هكذا، فإني سمعت أبي يذكر عن جدي رسول الله ﷺ أنه قال: (إن من الناس من يحلف بالله كاذبًا، فيعظِّم الله في يمينه

---

١ الكافي، الكليني، ج ٦، ص ٤٤٦.
٢ وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ٢٣، ص ٢٧٠.

ويصفه بصفاته الحسنى فيأتي تعظيمه لله على إثم كذبه ويمينه)، ولكن دعني أُحلّفه باليمين التي حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه لا يحلف بها حالف إلا باء بإثمه، فقال المنصور: فحلفه إذًا يا جعفر، فقال الصادق عليه السلام للرجل قل: إن كنتُ كاذبًا عليك، فبرئت من حول الله وقوته ولجأت إلى حولي وقوتي، فقالها الرجل، فقال الصادق عليه السلام: اللهم إن كان كاذبا فامته، فما استتم كلامه حتى سقط الرجل ميتا واحتمل ومضى به[1].

فيتضح من ذلك أن للدعاء تأثير ولو وقع من الظَلَمة وهو ما أسميناه بالأثر التكويني للدعاء، مضافًا إلى أنه قد ورد المنع من بذله حتى لغير أعدائهم عليهم السلام ، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في وصف دعاء السمات أنه قال: (هذا من عميق مكنون العلم ومخزونه، فادعوا به، ولا تبذلوه للنساء السفهاء، والصبيان، والظالمين والمنافقين)[2].

وقد عَلَّقَ صاحب رياض السالكين السيد عليّ خان المدنيّ رحمه الله على هذه الرواية بقوله: (وإنّما أمر بمنعها هؤلاء لئلا يستعملون الدّعاء بها فيما لا يحلّ سفهًا أو ظلمًا)[3].

الخلاصة:

على جميع الاحتمالات المتصورة في الغرض من حفظ الدعاء كما ورد، والتي منها احتمالية الأثر التكويني للدعاء وإن كنا لا نجزم بذلك؛ لا شك أن

---

١ وسائل الشيعة، الحر العامليّ، ج ٢٣، ص ٢٧١.
٢ بحار الانوار، العلامة المجلسيّ، ج ٨٧، ص ١٠٢.
٣ رياض السالكين، سيد عليّ خان المدنيّ، ج ١، ص ١٠٢.

الالتزام بالأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام هو الأولى والأفضل والأسرع للنتيجة من جهة أنهم الأقرب والأعرف بلغة الخطاب مع الله عزَّ وجل. ولذلك فإنّا نأمل من قرّاء الأدعية المحترمين زادهم الله توفيقًا ورضا الالتزام بما ورد عنهم عليهم السلام في الأدعية المأثورة بلا زيادة ولا نقيصة ولا تبديل لأجل حصول الغاية المنشودة من الدعاء.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينظر إلينا بعين اللُّطف والرحمة، وأن يوفقنا لما يقربنا من رضاه، وأن يرفع هذا الوباء والبلاء عن رؤوس عباده الضعفاء بجاه نبيه الأعظم وآله الميامين صلوات الله عليهم أجمعين.

كتبه بيده الداثرة أقل العباد

محمود بن صادق النجار البحرانيّ

عفى الله عنهما

ليومين بقين من شوال من عام ١٤٤٢

الموافق للتاسع من الشهر السادس من عام ٢٠٢١